قرطاس

▪ أحمد عبد الحسين

صاحب السفرطاس

نحن لم نرَ الزعيم عبد الكريم قاسم، ولدنا بعد مقتله بسنوات، لكنْ رآه آباؤنا عياناً في حياته ثم رأو صورته مطبوعة على صفحة القمر بعد مماته، ورأوه حياً في مدن أنشأها لهم من العدم، في حكايات متواترة عن بساطته وتواضعه وحبه للعراق وتفانيه من أجل الناس، حكايات أقرب إلى أساطير وشطحات خيال أناس بسطاء مع أنها حقيقية.

لم نر الزعيم الذي أحببناه لحبّ آبائنا له، كم من مرة يتذكره الأبُ وتسيل على خديه دموع يحاول أن يحبسها ولا يستطيع، كم شمعة أشعلتها الأمّ منتصف كلّ رمضان من أجل روحه، الصور المخبأة في صندوق الأمّ، صور الزعيم الذي بات بطل طفولتنا، اختلطتْ بشكل مبهم وغامض مع صور الأئمة الملوّنة، مع صورة المنقذ التي ندخرها في أعماقنا كزهرة أمل نخشى عليها أن تذبل.

لم نره في جريدة أو في القمر، لكننا حين كنا نسير في المدن والأحياء التي أنشأها الزعيم كنا نعرف أن هذه المدن مدن "كرّومي" وأحيائه، نعرف أن التأميم فكرته، نتذكر سفرطاسه الشهير، وقوله لصاحب المخبز حين رآه يعلّق صورة كبيرة له: "صغّر صورتي وكبّر الرغيف"، نتذكر ابتسامته العذبة، وجهه السومريّ، تكالب الضباع عليه من كل حدب وصوب، ونشعر بأنه لم يمتْ، ما زال حيا، وحياته إدانة لكلّ من جاء بعده من حكام منذ مقتله وإلى يومنا هذا.

الذين قتلوه كشفوا عن غبائهم حين ألقوه في النهر ليطمسوا أثره، لم يريدوا أن يكون له قبر يزار، لكنهم دون أن يشعروا جعلوه أسطورة عراقية مثالية، اختلط مع ماء العراق، صار يذكرنا بأطياف تموز والحلاج، شأنه شأن أرباب الخصب في بلد لم ير الخصب بعده.

نحن الذين لم نر الزعيم في جريدة أو تلفزيون أو قمر، يمكن أن نرفع صورته الآن أمام حكامنا الجدد، يمكننا أن نقول لهم: إن هذا الرجل حكم خمس سنوات وأنشأ مدنا كبيرة، فماذا فعلتم أنتم في تسع سنين جعلتموها عجافاً؟ كرّومي مات وليس له بيت، كان ينام على الأرض وزاده في سفرطاسه، وأنتم لم تكفكم أموالكم "الشرعية" التي تتقاضونها "وهي أرقام فلكية" فعمد كثير منكم إلى اللصوصية، حتى جعلتم مال العراق نهباً بينكم.

لسنا بحاجة إلى براهين على فشلكم سادتي لكننا، استذكاراً لزعيمنا المحبوب وتبركاً به، نريد أن نرفع اسمه حجةً وبرهاناً ودليلاً دامغاً على فشلكم المزمن وانعدام صدقكم وإخلاصكم ونقصان وطنيةٍ واستفحال لصوصية وكراهية شعبٍ لم يحبّ زعيماً بعد كرومي.

اكنزوا المالَ بأشدّ مما فعل قارون، تجبّروا كما تجبّر صدام، اضحكوا على ألم الناس لكنْ هيهات أن تطمعوا بنيل حبّ العراقيين لكم، فهم لا يحبون إلا الزعيم الذي يدخل القصر ومعه سفرطاس.

أردوغان ومعركة الانفراد بالأضداد

يعاني المراقب للسياسة الخارجية التركية من صعوبة القبض على مسارات محددة يمكن من خلالها أن يرسم صورة واضحة لطبيعة هذه السياسة وتوجهاتها ومواقفها. ويتزايد هذا التشويش مع دخول (تركيا-أردوغان) بقوة على موجة الأحداث والتغيرات في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

د. نعمه العبادي ★

أعلن منظّر ومخطط السياسة الخارجية التركية والأب الروحي لحزب العدالة والتنمية احمد داود أوغلو في كتابه (العمق الإستراتيجي..موقع تركيا في الساحة الدولية) عن ستة مبادئ قال عنها: يتعين على تركيا الالتزام بستة مبادئ حتى يتسنى لها تطبيق سياسة خارجية إيجابية وفعالة وهي: (مبدأ التوازن السليم بين الحرية والأمن)، و(تصفير المشكلات مع دول الجوار (أي صفر مشاكل)، و(التأثير في الأقاليم الداخلية والخارجية لدول الجوار)، و(السياسة الخارجية متعددة الأبعاد)، و(الدبلوماسية المتناغمة)، و(أسلوب دبلوماسي جديد).

يعقب أوغلو عند التعرض للمبدأ الثالث بعد أن يبين أسباب عدم تأثير تركيا في الشرق الأوسط بسبب حالة القطيعة بين العرب والأتراك، ويشير إلى أن هذا التوجس والريبة والبرود بالعلاقة قد انتهى، ويفسر ذلك بقوله: "بيد أن الضرورات البراغماتية التي تولدت عن الحاجة إلى الدعم الدبلوماسي المتبادل فتحت الطريق أمام هذه العلاقات، وحطمت الحواجز التاريخية/النفسية، وهو ما جعل تركيا أكثر التزاماً بسياسة شرق أوسطية فعالة منذ ٢٠٠٢".

إن كلمة الضرورات البراغماتية يمكنها أن تعين في تفسير هذا التذبذب والتقلب، والوجوه المتعددة التي تلبسها السياسة التركية في المنطقة، مما يلزمنا رصد حركة المنافع والمخاطر من المنظور التركي وعلى أساسها يمكن فهم واستشراف المواقف التركية، وتوجهات سياستها الخارجية، وطبيعة المواقف التي تتخذها تركيا- أردوغان، بحيث تكون متضادة تماما في بعض الأحيان.

بعيداً عن البحث في تطبيق المبادئ الستة على سلوك أردوغان تجاه العراق في الفترة الأخيرة، ومدى ملاءمة تصريحاته الاستفزازية لمبدأ تصفير المشاكل وللأسلوب الدبلوماسي الجديد، بل وللمواقف والمسيرة السابقة لنهج السياسة التركية تجاه العراق ما بعد نيسان ٢٠٠٣، لابد من الانتباه إلى الحركة المريبة التي يحاول أردوغان توظيفها تجاه الحكومة العراقية.

صحيح أن أردوغان ليس وارثا شرعيا لمبدأ "فرّق تسد"، لكنه وأسلافه ليسوا بعيدين عن توظيفه، فماذا تعني هذه الدعوات التي توجهها تركيا إلى القيادات العراقية في وقت تشتد فيه الأزمة إلى درجة التفكير بسحب السفراء وإغلاق السفارات؟ وأي مقولة يريد تسويقها عندما يقول نحن لسنا ضد الشيعة وإنما ضد سياسة حكومة المالكي؟ والى أين يريد أن يصل من خلال لعبة الانفراد بالأضداد، فمرة دعوة للسيد النجيفي وأخرى للسيد عمار الحكيم، وقد تتبعها دعوة جديدة للتيار الصدري أو لقوى سياسية أخرى؟

يقال أن السيد أردوغان عاطفي وانفعالي، وأن المواقف الأخيرة كانت ردود فعل انفعالية ولم تكن مواقف مبدئية وسياسة إستراتيجية لتركيا، فهل تؤكد الوقائع هذه الدعوى؟ ويقال أن السيد أحمد أوغلو غير راض عن مواقف أردوغان الأخيرة، وأن رؤيته تتجه إلى التهدئة، وأن تقاطعا بينهما بشأن المواقف الأخيرة من العراق، فهل يمكن أن تقود عقلانية أوغلو رئيس وزرائه إلى مراجعة متأنية وإعادة نظر؟ ويقال أيضا، إن أردوغان حرص على توجيه دعوة إلى المرجعية في النجف الأشرف لغرض توضيح موقفه من شيعة العراق وأسباب تصريحاته الأخيرة، إلا أن المرجعية لم تستجب لهذه الدعوة ولذلك عمد إلى دعوة السيد عمار الحكيم كبديل أقرب، فإذا ما صحت هذه الأخبار، إلى أين يريد أن يصل السيد أردوغان، هل يريد أن يصل إلى طمأنة الشيعة وتوضيح مواقفه أم إلى تفريق حلفاء السيد المالكي عنه، وحصر المعركة معه ليظهر للعراقيين أن الموقف التركي ليس له منطلقات طائفية وإنما هو تقاطع في الأفكار واختلاف في الرأي حول الأداء السياسي؟

تركيا التي تعودت على دور الوسيط في الملفات الشائكة، ونقاشات خلف الكواليس والتي عملت نائبا في أكثر من مورد عن الولايات المتحدة الأمريكية وحلف الناتو والعربية السعودية وإسرائيل أحيانا، هل تحمل مشروعا ما من جهة أو جهات يتعلق بالأزمة العراقية الأخيرة وقضية الهاشمي والتفكير بحكومة الجديدة؟ وإذا ما كانت هذه النبوءة صحيحة، فما هو شكل المشروع التركي الجديد ومن يدعمه؟

ربما يقرب هذه النبوءة إلى الواقع ما أسميته لعبة الانفراد بالأضداد، حيث يكون مقدمة هذا المشروع إقناع مكونات التحالف الوطني الأخرى، (غير دولة القانون) بالتفكير ببديل للسيد المالكي، وقد تتضمن الصفقة إعطاء ضمانات بدعم ومساندة دولية وعربية وخصوصا من دول الخليج العربي عبر العرّاب التركي.

في عرض لسيناريوهات الواقع العراقي بعد انسحاب القوات الأمريكية، أشرت إلى أن واحداً من مؤشرات الحالة السيئة أن يزداد تجرؤ دول الجوار على التدخل بالشأن العراقي وخصوصا، تركيا وإيران، فهل أن موجة التدخلات والتصريحات الجريئة التي يعج بها الفضاء العراقي هذه الأيام جاءت في هذا السياق ومن خلاله؟ وإذا كان الأمر هكذا بالفعل، فماذا ينبغي على القوى العراقية أن تقوم به تجاه هذا الانزياح؟

مرة أخرى، أعود إلى الكلمة المهمة والمفتاح السحري الذي يمكن أن يفتح لنا أبواب الكثير من ألغاز السلوك الأردوغاني (الضرورات البراغماتية)، وأضع تحتها ثلاثة خطوط حمر وأزيد من حجم الخط فيها، بل ألوّنها باللون الأحمر لتكون واضحة أمام أعين الجميع من القوى العراقية، الذين قد يعتقدون خطأ أن (تركيا-أردوغان) يمكن أن تنطلق من توجه مذهبي ورؤية عقائدية تجعلها ملتزمة (إلى الأبد ومهما كان)، مصالح طرف أو جهة عراقية معينة، أو أن تدافع عن مكون عرقي معين، لكي يكون واضحا لديهم أن الضرورات البراغماتية لا تستحي أن تجمع إسرائيل وحماس في حضن واحد. لا أستهدف في هذا التحليل الدعوة إلى سياسة خارجية نظيفة وقيمية، وإن كنت أعتقد أن هذا هو الطريق الأصوب والأقرب إلى خير البلاد والعباد، ولكني أبث إشارات وعي أمام المنخرطين في لعبة الانفراد بالأضداد أو المسحوبين إليها دون دراياتهم، وأدعوهم إلى تحكيم ضرورات العراق والعراقيين البراغماتية، فهي أولى من كل الضرورات.

ختاماً، يمكننا أن نمضي بمسيرة الإصلاح والتصحيح إلى آخر المطاف، ومن المنطقي أن يتم التفكير بكل الخيارات لإخراج البلد من أزمته مهما كانت تلك الخيارات صعبة وباهظة الكلفة، إلا أن المهم والضروري، بل لا مناص منه، أن تكون حلقات التفكير والنقاش ودائرة صنع القرار عراقية الهاجس والهموم والمنطلق والمسعى والإرادة، وبعيدة عن الانصياع لأي رغبة خارجية أو تأثير جانبي، وليكن العراق للعراقيين فقط وفقط.

★ مدير المركز العراقي للبحوث والدراسات

كاريكاتير

■ عادل صبري

انقلاب شباط أسود

علي نافع حمودي

كثيرة هي الأحداث في تاريخ العراق، وأغلبها شكّل مفترق طرق وأدى إلى نتائج ظلت سماتها بارزة في المشهد العراقي بكل أبعاده، ولعل أغلب الأحداث في العراق كانت تقود إلى برك من الدماء وتدمير لما هو موجود من بنى ومؤسسات لتبدأ مرحلة جديدة عادة ما تكون من الصفر.

إذا كان هنالك حدث تأريخي بمعنى الكلمة غيّر مسارات بناء الدولة العراقية فيمكننا اعتبار تاريخ الثامن من شباط عام ١٩٦٣ بداية النهاية لحلم راود الكثير من أبناء الشعب العراقي في أن يجدوا دولتهم تقوم على أسس صحيحة في عمليتي البناء المؤسساتي من جهة والاقتصادي المتكامل من جهة ثانية عبر مشاريع عديدة بعضها رأى النور وآخر ينتظر.

وعلى هذا الأساس كان هنالك تفاعل كبير بين الشعب العراقي وثورته الفتية التي تمكنت من أن تعالج الكثير من مواطن الخلل في المجتمع العراقي، حيث شهد العراق آنذاك جملة من المشاريع النهضوية خاصة في مجالي الصحة والتعليم والزراعة التي نهضت كثيراً عبر تشريع الكثير من القوانين التي يمكن القول إن النظم الحاكمة في العراق بعد عام ١٩٦٣ فشلت في أن تصل إلى درجتها من حيث العدالة والتطبيق والرؤية الاقتصادية المنهجية لاستثمار ما متوفر في البلد من خيرات، وفي مقدمة هذه القوانين قانون الإصلاح الزراعي الذي ربما نظر إليه البعض نظرة اشتراكية، فيما وجده البعض ترجمة لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في كونها أنهت الإقطاعية، لكن لم ينظر أحد لهذا القانون باعتباره قانوناً ذا أبعاد اقتصادية كبيرة على الناتج الوطني من جهة، ومن جهة أكثر أهمية بوصفه قانوناً وفّر فرصة عمل لأكثر من مليون عراقي وجدوا أنفسهم أصحاب عمل حقيقي لا أجراء يتقاضون ثمناً بخساً عن أعمال كبيرة.

لهذا فإن إنجازات عبد الكريم قاسم رجل ثورة ١٤ تموز لم تكن ترضي الكثير من الذين تربصوا بهذه الثورة وحاولوا بين الحين والآخر تشويه ملامحها أو التقليل من قيمة ما أنجزته للشعب العراقي أو ما ستنجزه في خططها القادمة، خاصة ما يتعلق منه بقطاعات مهمة وخطيرة وهو قطاع النفط استثماراً وتصديراً، حيث ومن خلال مراجعتي المستمرة الكثير من الوثائق التاريخية نجد أن هنالك الكثير من القرارات ومشاريع القرارات كانت قد تمت مناقشتها بين الزعيم قاسم والوزراء والمستشارين وأبرزها الشروع بطرح مشروع تأميم النفط العراقي وجعل عملية الإنتاج والتصدير بيد العراق بعيداً عن الشركات البريطانية والهولندية وغيرها من الجنسيات، والكثير من الوثائق التاريخية تؤكد أن مشروع هذا القانون كان على مكتب الزعيم عبد الكريم قاسم ليلة الثامن من شباط ١٩٦٣.

لهذا فإن ما حدث صبيحة الثامن من شباط لم يكن ثورة ولا حتى انقلاباً، بقدر ما كان محاولة لنسف الدولة العراقية الناهضة وإرجاعها عشرات السنين للوراء، بغية استكمال حلقة التفرد بالخيرات وإبقاء الشعب العراقي في حالة من الجمود والضياع وهذا ما حصل بعد شباط ١٩٦٣ حيث دخل العراق في دوامة من الصراعات المتتالية. دخل العراق بعد الثامن من شباط نفقاً مظلماً استمر عقوداً طويلة أعادت العراق لعصر ما قبل عبد الكريم قاسم وها نحن نعيش اليوم في بلد يفتقد الكثير من البنى التحتية التي كانت موجودة قبل شباط ١٩٦٣.

ربــاعــيــات

السومري الأخير ومحميات الهنود الحمر

ناصر الحجاج

من ذا الذي يمكنه أن يبرهن أن للعراق اليوم دستوراً عادلاً، دستورا واضح المعالم، بل أن للعراق دستورا أصلاً. إن كان ثمة دستور فإنه أبعد ما يكون عن أن يكون دستوراً. أتعلمون ما مهمة الدستور الأولى؟ مهمته أن يحدد هوية الدولة من خلال رسم ملامح النظم التي تسير على نهجها مؤسسات الشعب في تلك الدولة عامّها وخاصّها.

كان لصدام حسين "نظام". وطيلة السنوات التي وقفنا فيها ضد "نظام صدام" الذي قتل شعبنا وأذله غاية الإذلال، ودمر طاقته وموارده، كنت أفكر أنني عندما أعود للعراق سأبدأ بإنشاء محميتي الخاصة على الأرض التي ورثتها عن والدي عن جدي منذ مئات السنين شمال البصرة، في القرنة، على الفرات العظيم إذ يلتقي بدجلة. محميتي التي أسميتها "مشروع القرية السومرية" وعملت طيلة ذلك الوقت على التخطيط الهادئ لإنشائها. هي أحد أحلامي العظيمة في البصرة التي أنجبتني لأعيد لها بعضاً مما وهبتني.

قرية سومرية يلبس أهلها ملابسهم المحلية الأصيلة، يزرعون فيها الشلب والحنطة والشعير والذرة البيضاء.. يستنبطون النخيل بكل أصنافه، يدجنون الأفراس والأبقار والجاموس والدجاج والبط، يصطادون السمك بالفالة والشباك، ويطحنون بذورهم بالرحى المرمرية ويرشّونها بالجاون، ثم تبدأ النساء بإشعال التنور الطيني من الكرَب والغرَب ويُعددن الخبز والسياح والطابك، وهناك من ينتظر غداء سمك البني والكطان منهمكاً في صناعة المسامير أو المناجل أو الكواريك (مهود الأطفال) أو في طلي مشاحيفه وطرايده بالقار.

ثمة آخرون يصنعون الحصران من نباتات الهور من الجولان والطاري، أو يفتلون الحبال من القنب أو الكتان، ما أخصب هذه الأرض، إنها كوثا ربّا (أرض الرب الخصبة).

آخرون يسفون الخوص سلالا وحصرانا ملونة، ونسوة هناك يغزلن الصوف عباءات أو يحكن ثياب أطفالهن الشتوية. وفي المساء يعود الآباء والفتيان من رحلة صيد طيور الحر والهربان والبيوضي والبرهان والصلندة والرخيوي ودجاج الماء "بلحم طير مما يشتهون" طعام أهل جنة عدن.

لم يبق من خطة إنشاء "القرية السومرية" إلا أن أعد العدة لإنجازها وتهيئة ظروف استقبال السياح من كل دول العالم بكتيب يذكر تاريخ المنطقة وحضاراتها وطرائق عيش شعوبها المتتالية، فلابد من مرافق ترفيهية وخدمية تستقبل السياح، تهيئ لهم ثيابهم المصنوعة من منسوجات هذه الأرض، وتهيئ لهم صرايفهم ومضايفهم المضفورة أخصاصها من قصب الهور وحبال ليف النخل. لا بد من أدلة سياحيين يعرفون استخدام المشحوف ودفعه بالمردي. لا بد من نساء نبطيات يعرفن الطحن بالرحى والرقش بالجاون والخبز بالتنور وغزل الصوف وفتل الحبال وسف خوص النخل سلالا وخصاصيف ومهاف تبرد حر لهيب الصيف.

لم يحل دون تنفيذ هذه القرية السومرية أمن مفقود، ولم يؤخر إنجازها تمويل، ولم يعق البدء بها إلا شيء واحد. لقد أبلغنا أحد الأجانب بأن شركته للتنقيب عن النفط تريد وضع يدها على أرضي وأرض أجدادي. تريد إحدى شركات النفط الخاصة سرقة حلمي إذاً.. تدميره، والقضاء على آخر ما تبقى من سومر، وآخر ما يحلم به السومري الأخير. أريد محميتي، ولن أسمح للغرباء بوضع يدهم عليها ما حييت. أريد من الدولة العراقية التي سرقت دماء إخوتي الذين ضحوا من أجلها فوضعت دماءهم على علمها لونا أحمر، ألا تسرق خضرة أرضي لتصبغ علمها باللون الأخضر.

فلتعاملني دولتي "الديمقراطية" كما عاملت أميركا هنودها الحمر. سمتهم أصحاب الأرض الأصليين "Native American" وتعاملت معهم بمعاهدة تشبه معاهدات الولايات المتحدة مع الدول الأجنبية. خصصت لهم أراضي "محميات" مثل محمية "وند ريفر" في "ويّومنك" لا يحق للآخرين استخدامها. أما مساحة محمية "نافاجو" وحدها فتزيد على ٥٦٠٠٠ كلم مربع وهي أكبر من مساحة تسع ولايات هي ميريلاند فيرمونت نيوهامشر ماساشوتست نيو جيرسي هاواي كونكتيكت ديلاور ورود آيلند.

ودولتي بدستورها الذي ما يزال هشا، وبقوانين الثروات الطبيعية التي ما تزال تراوح أمام طاولات من شغلوا كراسي البرلمان، تريد اليوم أن تسلبني ما ورثه أبي وأنا من جدنا من أرض زرعناها بالنخيل الذي أهملته الدولة وحالت سياساتها دون أن نرعاه ونحن في منفانا.

تريد شركات نفط خاصة، تتعامل بطرق غريبة، أن تضع يدها على أرضنا التي ورثناها قبل أن يقرر الإنكليز إنشاء بلد يسمى ميسوبوتاميا في وثائقهم ويسلمون سلطته الاسمية لرجل من خارج هذه الأرض.

نريد أرضنا بما فيها من ثروات.. لا نريد لأفراد فاسدين جاءت بهم نظم فاسدة أن يعاملونا كالعبيد يفرضون علينا بقوة السلاح إرادتهم اللاقانونية. مرة يستخدمون الدين لإخضاعنا.. وثانية يسلمون أمر البلاد لشركات خاصة بحجة أننا بلد رأسمالي، وثالثة يأخذون ما استودعه الله في أرضنا بحجة أننا بلد اشتراكي.

دعوا السومري الأخير يحقق حلمه في إنشاء محميته!